بعد أن استكمل تحشداته واكمل استعداداته وكان هدفه تطويق قوات الانقاذ وابادتها. ويقول المقدم لورتش في كتابه « حرب الاستقلال الاسرائيلية » ان « منطقة القتال كانت مألوفة جدا لقوات الهاغانا ذلك انها كانت لسنوات عديدة قاعدة للتدريب المتقدم لكل قادة الهاغانا من مرتبة آمر فصيل فأعلى ... وكانت القرى العربية المحيطة بمشمار هي هدف الهجمات المضادة التي بدأت تشنها الهاغانا ... وشهدت القرى والمعاقل الجبلية قتالا مريرا. فقد تعرض أحد تلك المعاقل الى (١١) هجوما عربيا متتابعا، وفي مواقع اخرى جرى تبادلها بشكل مستمر . ففي الليل كانت الهاغانا تستولي على هذه المواقع وفي النهار كانت قوات الانقاذ تعود للاستيلاء عليها مستفيدة من تفوقها بالمدفعية »(١٢٥).

متى بدأ الهجوم الصهيوني المضاد ؟ يقول القاوقجي انه بدأ في صباح ٩ نيسان وبقوة تزيد على ستة آلاف جندي مجهزين بعدد كبير من الهاونات والرشاشات الثقيلة ... وقد فشل الهجوم واستطاع الانقاذ استعادة مواقعه ... وبدأ الهجوم المضاد الثاني في صباح ١٢ وتطور القتال الى مجزرة ... وبدأ الهجوم المضاد الثالث في الساعة الخامسة من صباح ١٣ بقوة ست كتائب مع مدرعات وقصف بالهاونات الثقيلة ... وشاهد فوزي في ذلك اليوم أول طائرة استطلاع ... وكان هدف هذه الهجمات تثبيت الانقاذ امام مشمار وتطويقه ... (مذكرات القاوقجي ٤٣ — ٤٤) .

وفيما يقول أو بالانس « ان القتال استغرق كله مدة ستة أيام وانتهى في ١٠ نيسان حين قرر القاوقجي فجأة الانسحاب ... »(١٢٦) نجد ان لورتش يقول « ان القاوقجي حاول ان يرغم قوات الهاغانا على التزام موقف دفاعي لحماية المستعمرة حين جرب في ١٢ نيسان ان يعود لمهاجمة مشمار هاعيميك من جديد ولكن جنوده تعرضوا لكمائن اليهود في الادغال المحيطة ... وعلى هذا فقد وجد القاوقجي نفسه مرغما ، بعد سقوط عدد من القرى العربية ، على التراجع خشية عزله عن قواعده ... وبدأت قوات الهاغانا تلاحقه ... واستخدم اليهود في هذه المعركة الطائرات لاول مرة حين اشتركت طائرتا بابير كاب من « سرب الجليل » في عمليات استطلاع واسقاط ذخيرة وقصف مواقع المدفعية ... »(١٢٧). ولكن ما هي نتيجة المعركة ؟ القاوقجي يقول ان « خسائرنا في كل مراحل المعركة كانت (٢٤) جريحا وستة قتلى بما فيهم النقيب مأمون البيطار وان العدو ترك (٤٥) قتيلا ... في حين ان لدى القاوقجي تقارير من مصادر انكليزية تشير الى ان اليهود فقدوا (٢٣٠) قتيلا بما فيهم قائد الهاغانا و(٢١٠) من الجرحى ... (مذكرات القاوقجي : ص ٤٥) .

اما طه الهاشمي فقد طلب من القاوقجي انهاءها — كما يقول الاخير في مذكراته ص٤٧ — لانه رأى فيها معركة استنزافية خاصة وان ما لدى الانقاذ من ذخائر قليل جدا بينما لدى اليهود كميات كبيرة .

هذا ويرى القصري « ان القاوقجي خسر هذه المعركة لانه تأخر في شن الهجوم بالرجال بعد ان مهد لهم بقصف المدفعية ولانه قبل تجديد الهدنة واضاع ستة ايام في معركة لا تحتاج اكثر من ثلاث ساعات . وربما كان لا يعتمد على رجاله ويظن ان قنابل المدافع تكفي لوحدها لسقوط المستعمرة . وبهذه الخسارة سيطر اليهود على مرج بن عامر وشددوا الحصار على حيفا واكتشفوا ان المجاهدين لا يتحملون المعارك الطويلة ولا يستمرون امام المواقع التي تثبت امامهم »(١٢٨).

هذا ويستغرب او بالانس لماذا لم يشدد القاوقجي هجومه على المستعمرة ، اذ يرى ان القائد قد يكون واجه صعوبات في فرض التنسيق والانضباط على المجموعات المختلفة من قواته في هذه المرحلة الاولية وان يفرض عليهم العمل المشترك، وقد يكون وراء ذلك عدم تعوده وقواته على العمليات الواسعة والطويلة المدى التي تتطلب التخطيط والدقة والصبر ، وقد يكون وراء ذلك توقعهم الحصول على نصر سهل رخيص ، ظانين ببساطة